

الإربعاء 20-01-2010

873- لوحات تشكيلية وابست حالات (سوف نكرر هذا التوبة كل مرة)

هذه الحالات ليست حالات إكلينيكية واقعية، ولا حتى مُتخيلة بشكل روائى شعري مطلق، ولا هى تصف أشخاصا بالذات، إنها من وحي الفروض العلمية العملية التى استلهمناها من مزيج من الحالات المرضية، والأصدقاء المشاركين، وتراكم الخبرة، وإلهامات الأسطورة الذاتية للمؤلف.

اللوحة (17)

الحب بالراحة !!!

الرئى "بالراحة"، هو تعبير من بلدنا، وهو ذلك النوع من الرى الذى لا تستعمل فيه أية آلة (ولا حتى الطنبور أو الخلونة). لا يمكن الرى بهذه الراحة إلا حين يكون مستوى الماء فى التربة أعلى من مستوى الأرض، ويكفى الفلاح أن "يقطع" مدخل المياه من التربة فتنسب المياه إلى الأرض "بالراحة".

كانت هذه اللوحة التشكيلية، لصاحبة هذه العيون التى تملك هذه القدرة التى تسمح بأن ينساب نهر حنائها وحبها وطيبتها إلى كل من يطلب منها "شفطة" مياه، سواء كان عطشانا، أم كان يرى هذه السيدة الكريمة سيلا من حقه أن يأخذ منه نصيبه "بالراحة"، وكانت هى تكاد لا تمنع بنفس السهولة والكرم، وحين هممت أن أقمص بعض الجارى، اكتشفت التناقض بين ما دار بجلدى، وبينى ما أنا أنبح صوتى به ليل نهار لأبين صعوبة العلاقات البشرية، وأظهر مدى التناقضات الشائكة والمخيرة، التى تحفز إلى المثابرة المستمرة، حتى تتحول أسهم المواجهة المتصادمة فى التواصل البشرى إلى حركية الجدال فالنمو المتجدد.

كنت أتعجب من صاحبة هذه العيون التى لا تضع شروطا ولا مواصفات لمن تغرقه بمياه حنائها وغمر دفنئها.

ما هذا الذى تمنحه هذه السيدة الفاضلة؟

هل هو الحب الذى نتحدث عنه أم شئ آخر؟

ملأني العجب وأنا أصف الجارى (أو المتخيل):
والنظرة دى رَحْرَه عجب.

ماباشوفشى فيها إلاشى كما الحنان.
لا لهُ شروط ولا سبب.

وأقول لنفسى يا ترى:

هوا حنان الدنيا كله اجمّع الليله هنا؟
عمال بيغمرُنّا كده من غير حساب،

كَمَا تِرعه سابتٌ في الغيطان،

إلى بطونها اتشَقَّقَت

الحاجة إلى الحنان حاجة ملحة وشاملة .. وهى تتحد في الحزين ،
والوحيد، والمنعزل، كما أنها تظهر تلقائيا مثلما تحتاج أى أرض
إلى مياه الري، كما أن هذه الحاجة تتحد أكثر بعد توالى الإحباط
..، وعند شدة الاحتياج، كما أن كل هؤلاء، يعملون عادة عن
إشكالية طبيعة هذا الخب السهل المنساب بلا حساب.

في قريتي أيضا، تترك الأرض مددا طويلة في فصل الجفاف حتى
تتشقق تماما جوعا إلى المياه، ويفيد هذا الجوع في أن يعرض
باطن الشقوق للهواء والشمس بدرجة تجعلها أكثر خصوبة
وإثمارا، وحين يأتى وقت الري بعد فترة معلومة، يقال إن
الفلاح "يطفى" الشرقى، وهو تعبير مختلف عن "يروى الأرض"،
لأنه فعلا يغمر هذه الأرض المتشققة من الجفاف، الملتهبة من
التعرض للشمس المشتاقة إلى المياه، يطفئها غمرا بما يملأ
شقوقها حتى تفيض، وتشبع، وهذا الغمر يقوم بوظيفته
التخصيبية استعدادا للزراعة المناسبة.

المقابل في كرم طوفان حنان هذه السيدة - ومن مثله -
وصلنى من ملاحظتى أن الغالبية الغالبة تطلبه، وتسعى إليه،
سواء في الحياة، أو في مقام العلاج النفسى، ونشرت أن هذا
حقمهم من حيث المبدأ، سواء كان طالب الارتواء: قلبا حزينا،
أو قلبا وحيدا، أو قلبا جفّ وتشف، أو قلبا مجروحا "من
عمال الناس"، أو قلبا متهالكا "متمهمطا" من كثرة
القهر والتمزيق والإهانة والاستهانة، أو قلبا منبوذا
موصوما بالتجاوز أو حتى بالهرطقة لجرد أنه تجرأ على النظر
في المقدسات، أو نقد السلطة، أو قلبا مبدعا تجرأ فكشف عن
جانب من الحقيقة (مش صحّت الأسطى إمام من عُقلته، واللى
يصجى الناس يا ناس، أكبر غلط) فلم ينل إلا الرفض والنبد.
كل هؤلاء يمثلون جمهور العطاشى الذين يتقبلون الغمر من
مصدر المياه "بالراحة" بدون تمييز، وأيضا بلا صعوبة.

لكن هل يرتوون هكذا بدون جهد من جانبهم؟، بدون
إسهامهم في السعى إلى الري؟ ناهيك عن تحمل أن تكون العلاقة
متكافئة، والمسئولية مشتركة؟

في كثير من الأحيان يأتي المريض طلباً للعلاج ليرتاح، ليعتمد، ليجد الحل جاهزاً، والتفسير مقنعاً، والعقدة لها من محلها دون أن يشارك هو بالقدر الكافي في ذلك، وقد تجلّى ذلك تماماً في نشرة سابقة **(نشرة 2010-1-6 "نجاتيف" إنسان، وتعربة قاسية صادقة)** وقد يتحقق له ذلك، أو بعض ذلك في بداية رحلة العلاج، أو مع تعاطي بعض المسكنات، أو المريحات من عقاقير وساج، لكن العلاج الحقيقي، مثله مثل التربية والنمو في أي مجال يتطلب غير ذلك، ويسرى في طريق مختلف.

والمية بالراحة بتطفي في "الشراقي"

من دُون ولا ساقية تَنُوح،

ولا قَادُوس ولا شَادُوف.

المية تُغْمَرُ وَاخْتَانُ بِيَبْشِبْشِ القلب الحَزِينِ،

والقلب إلى مَالُوش حبيب،

والقلب إلى من عمائل الناس بقى حنّة خشب،

والقلب إلى اتمهمت دقائقه أصبح مثل كوره من الشراب،

تضربها رجلين العيال طول النهار.

وان جت على أزاز ام هاشم يبقى يوم أزرق وطين،

بالكوره تتشرمط يا إمّا ان العيال يتفركشوا.

حتى إذا ازاز "ام هاشم" ما اتكشرش.

مش صحت "الأسطي إمّام" من غفلتة.

"واللى يصحى الناس ياناش أكبر غلط!"

هؤلاء العطاشى لا يرتوون عادة "بالراحة" مجرد أن لهم حقهم في الرى، قد يجذرون أو يهدأون، لكن الارتواء شيء آخر، مع التأكيد أنهم عطاشى فعلاً، بغير ذنب جنوه غالباً!! إذن ماذا؟

في خبرتى، لاحظت أن هذا الحب السهل الجاهز، حتى عند معالج نفسى طيب، ليس هو الذى يلزم المريض لينمو به ومن خلاله، هو حب أقرب إلى الفيزياء الذى لا يتوجه تحديداً إلى واحد بذاته، ليس بمعنى القدرة على الحب، ولكن بمعنى أن هذا الغامر بلا تمييز لا يحدد الفروق الفردية في الذات المعنية (الموضوع)، موضوع الحب، بل إنه يغمر من يجده دون تفرقة: "من يعطش يشرب" (وخلص)، فهل يا ترى هذا هو الحب الذى يميز الكائن البشرى بما سبق ان أشرنا إليه من أنه اكتسب الوعي، ثم الوعي بالوعي، ثم هو يثابر طول الوقت، ليميز الموضوع "كما هو"، كما اشرنا في اللوحة السابقة؟ **(نشرة 2010-1-13 "نجاتيف" إنسان، وتعربة قاسية صادقة 2" حوار: د.جمال التركي X د. يحيى الرخاوى)** هل هذا هو الحب الذى يحاول أن

ينمو باضطراد حتى يقلب "الموضوع الذاتي" إلى "موضوع حقيقي" يسمح بعلاقة بشرية تليق بالبشر؟ هل لهذا الغمر دون تمييز ودون جهد عمر يسمح بتطوره، لنتغير من خلاله إلى ما هو أكثر مسئولية، وأقوى اقتراباً من بعضنا البعض، وأصعب أيضاً؟

وارجع أشوف نهر الخنآن

ألقاه بيطفى في الشراقى بدون "أوان"

لكين الشراقى مَهْمَا شَقَّقَهَا الجفاف؛

الميه راح ترويهها ضُخ،

لكن كمان

إن سابت الميّه على العَمَّال على البَطَّال حاتغرق أرضنا،

حتى لو الأرض شراقى مَشَقَّقَه،

ولاً الزراعة بدونْ أُولُو؟

مش لازم الأرض تجف وتعرق؟!!

أو ضَرْبَة المِجْرَات تَشَقُّ الأرض تَقْلِبْ تَبْرَهَا؟!!

في العلاج النفسى ، مثلما هو الحال في التربية والنمو، يكون عامل التوقيت من أهم العوامل، إن لم يكن أهمها في دفع النمو (والشفاء) في مساره الطبيعى، والمتبع لما ننشره هنا في هذه النشرة في باب "التدريب عن بعد" لا بد أنه لاحظ أن كثيرا من التوصيات، والتوجيهات، والاستشارات، تنتهى ليس إلى أن علينا أن نفعّل كذا أو كيت، بقدر ما تنتهى إلى "متى نفعّل ما تقرر أن نفعّله"، أى متى يكون القرار فاعلا، فيكون صوابا، ومتى يكون نفس القرار خطأ في وقت آخر، وهكذا، أضف إلى ذلك عامل "الوقت" اللازم لسبك عملية النمو مع التذكرة بأن "الوقت" نغيز التوقيت.

لا يمكن أن يتم نمو بدون وقت، قفزات التغير لها دلالتها الرائعة، لكنها وحدها، بدون أن يتم الإعداد لها في وقت كاف لإنجاحها، وبدون أن يلحقها بعدها فعل مناسب لاستثمارها، لا تدل على شيء إيجابى بالضرورة.

وارجع أشوف نهر الخنآن،

ألقاه بيطفى في الشراقى بدون "أوان" ،

بدون أوان هنا، إشارة إلى سوء التوقيت،

نتكلم دائما في العلاج النفسى والتربية والنمو عن "الجرعة"، إضافة إلى التوقيت، عن أن ضبط جرعات الدعم المباشر، وجرعة المسافة، وجرعة النصح، (نشرة 9-12-2009 "تسول الحب، والاعتمادية الرضعية" "1 من 2") لا يقل أهمية وحساسية عن ضبط جرعة الدواء،

شعرت من هذه الخبرة أيضا أن فرط غمر الحنان هكذا قد يأتي بعكس الرى، وهو الغرق.

لكن الشراقى مَهْمَا شَقَّقَهَا جَفَافٌ؛

الميه راح ترويهَا صُخٌّ،

لكن كَمَا نْ

إن سابت الميَّة على العَمَّالْ على البَطَّالْ حَاتغِرَقْ أرضنَا،

حتى لو الأرض شراقى مَشَقَّقَه،

ولآ الزراعة بدونْ أُصُولْ؟

أصول الزراعة، مثل أصول التربية، مثل أصول العلاج النفسى: لابد لها من الإعداد، والتدرج، وضبط جرعة المسافة المتغيرة، وتسميد الأرض مثل تسميد الوعى، ثم خذ عندك تقليب التربة، وتخطيط الخطوط، مثل تعتعة الوعى، ورسم المسار فى التربية والعلاج النفسى (بل والإبداع). إذن فالمسألة ليست غمرا بالخب والحنان والود والإراحة، بقدر ما هى تخطيط مناسب لحركية الوعى بمستوياته "معا"، وتحريك منضبط على مسار معدّ، هذا ما يشير إليه المتن هكذا:

مش لازم الأرض تجف وتعزق؟!!

أو ضربة المخرات تشق الأرض تقلب تبرها؟!!

العلاج النفسى كما أشرنا، يحتاج - بالإضافة إلى عاملى الوقت والتوقيت الذى ذكرناهما حالا- إلى خطوات منظمة، وإلى ضبط العواطف وأحيانا منعها حتى تجف الأرض، ليس بالإهمال ولكن بالحساب، ثم إلى جرعات منظمة من الألم والعمل (العزيق) أو جرعات قاسية من الرؤية العميقة للوصول إلى الجوهر (ضربة المخرات تشق الأرض تقلب تبرها)

كما لاحظنا فى النشرة قبل السابقة (الحالة 16 "نيجاتيف" إنسان، وتعريه قاسية صادقة "الحلقة الأولى")، أن سوء فهم العلاج النفسى، يؤدى إلى فرط الاعتمادية، وانتظار الحل السحرى من المعالج، كما أن أغلب الناس، وبعض الأطباء والمعالجين، يتجنبون كل ما يؤلم المريض، ونحن نكرر باستمرار أنه لا يمكن عمل علاقة حقيقية بين البشر بدون صعوبة حقيقية، ولا يوجد نمو بدون ألم، ومع ذلك فإن الإعلام وبعض التربويين يبالغون فى التأكيد على التفويت، والإراحة، ويحتجون احتجاجا قويا على أى ضغط، على طالب النصح، أو المريض، مثلما يحتجون على صعوبة الامتحانات، وعلى صعوبة الالتزام، وعلى صعوبة انضباط المواعيد، كل ذلك هو ما كتبه فى المتن احتجاجا من هذه السيدة الكريمة، وهى تتقطع شفقة على الأرض وسلاح المخرات يخرق طبقاتها، كما تخرق رؤية المعالج والمريض نفسه طبقات وعيه حين يكتسب البصيرة، تحتج هذه السيدة الكريمة فى المتن على أى احتمال شدة مهما كانت لازمة فتقول:

والنظرة إلى بُتْغَمِر الكون بالحنان من غير حساب بتقول:
"خرام.."

ياناس خرام:

أرض الشراقي مُشَقَّقة، جاهزه،

بلاش نُجْرَح شُعُورُها بالسَّلَاح..."

أعود إلى رفضي ما يجرى، وأنا أتعجب من هذه الشفقة الرجراجة،

ينبه المتن أن غمر المياه، ليس هو الرى المناسب، ثم إنه يحتاج إلى "صرف" سريع لزائد المياه حتى لا تفسد البذور، وقد أحلوا الرى بالتنقيط، أو بالرش، محل الرى بالغمر حتى لا تفسد البذور، وأيضاً توفيراً لجهود الصرف الضرورى اللاحق، بل إن الاهتمام بالرى المتدفق (وهو ما يقابل هنا: الحنان والشفقة والمبالغة في تخفيف الألم على حساب معاناة النمو في العلاج النفسى) قد يلهينا عن ضرورة وضع البذرة ابتداءً (البذرة في العلاج النفسى هي: المعنى، حتم التغير النوعى، إشرافة النقلة الكيفية... الخ) حتى تأتى الإحاطة والرعاية والتنمية والحنان لترعاها بعد غرسها.

من هنا فاض بي فصرخت محتجا:

يا ناس يا هُو: بقى دا كلام؟ بقى دا حنان؟

"الزرع لازم يثروى!" أيوه صحيح،!!

بس كمان: الزرع لازم يثررع أول،

ماذا وإلا البذرة حاثنبت وبس.

تأكيد جديد لنفس المعنى، وللأسف فهذا المعنى - التلقائية بلا حدود .. وتجنب الإيلام - هو الشائع في الكذبة التي كادت تضيع أطفالنا تحت اسم "التربية الحديثة"، وهى هى التي تشوه معنى العلاج النفسى البناء وتصوره وكأنه مجرد نزهة للتبرير والطبعية، وكثيرا ما قابلت شبابا ونساء كانت ثورتهم الحقيقية في داخل داخلهم هى أن المسئولين عنهم في مرحلة ما من مراحل عجزهم كانوا أجبن من أن يقولوا لهم "لا"، وأعنى بها "اللا" المحبة المسئولة مهما بدت قاسية أحيانا. وهو المعنى الذى سوف يأتى ذكره في لوحة لاحقة "وغياال ليأم دى غلابة، لا فى عصا ترهمهم ولا حكمة، من مش الجان!" إن الغمر بالحنان إذا لم يسبقه ويلحقه ويصاحبه تهيئة النظام التربوى الذى يستوعبه ويستفيد منه يصبح إطلاقا للسلبيات تحت عناوين حديثة براقعة.

وهكذا أعلنت في المتن خوفا من أن تكون هذه العواطف المناسبة هكذا دون حساب، هى نوع من التخلي عن مسئولية العلاقة الموضوعية، المميّزة، أن تكون خوفا من هذا المستوى الآخر من الجدل الشائك، والحركة المغامرة الضرورية في إرساء علاقة بين البشر.

وهكذا رجح عندي فرض يعتبر أن هذا الحب هكذا "بالراحة"، ليس إلا خوف من الألم، ونوع من الهرب من المواجهة ومن التناقض اللازم للجدل العلاقتي التطوري، وأيضاً أنه تجنب للجهد والمشقة. (وتعبير "قلة مفيش" تعبير سائد عند أولاد البلد عندنا يعنى العدم والفراغ).

يا ست يا صاحبة بحور الحب والخير والحنان:

إوعى يكون حُبك دا خوف،

إوعى يكون حبك دَهْه "قِلَّة مافيش".

إوعى يكون حبك طريقه للهرب من ماشكه الخزات،

وشُخيانك بطول الليل لِيغرق زرعنا.

وبرغم كل هذا النقد، والمحاذير، فإن العطشان جداً، الوحيد جداً، المفرغ جداً، - حتى لو كان مثلى - حتى لو أدرك أن هذا الغمر بالحنان، والحب "بالراحة" ليس هو حاجته تماماً، فإنه من فرط احتياجه (من كتر ما انا عطشان)، يجد نفسه بعد كل مخوفاته، وحساباته (باخاف أشرب كده من غير حساب) يجد نفسه غير قادر على رفض النهل في المتاح، وهو لا يتمنى أكثر من قطرة واحدة مما يجرى أمامه، فلا يستطيع الرفض، ويعلم أن الهلاك ينتظره في التمدادى في أى من الاتجاهين، فينتهى المتن بهذه النهاية الواقعية المؤلمة قائلاً:

من كُتُر ما انا عطشان بِأخاف أشرب كِدِه من غير حساب!

لكن كمان:

مش قادر أقول لأه وانا نفسى في ندعة مِيَه من بحر الحنان!

يا هلترى:

أحسن أموت من العطش؟

ولا أموت من الغرق؟!

وأخيراً: إليكم المتن مجتمعا

لعله يخفف من آثار عدوان تدخل الشرح الجاف

(1)

والنظره دى رخره عجب.

مباشوفشى فيها إلاشى كما الحنان.

لا لَه شروط ولا سبب.

وأقول لنفسى يا ترى:

هو حنان الدنيا كله اتجمع الليله هنا؟

كَمَا تَرَعَهُ سَابِثٌ فِي الْغَيْطَانِ،

إِلَى بَطُونِهَا اتَّشَقَّقَتْ

(2)

وَالْمِيَهُ بِالرَّاحَةِ بِتَطْفِي فِي " الشَّرَاقِي "

مِنْ دُونَ وَلَا سَاقِيَهُ تَنْوُحُ،

وَلَا قَادُوشٌ وَلَا شَادُوفٌ.

الْمِيَةُ تُغْمَرُ وَالْحَنَانُ يَنْبَشِبِشِ الْقَلْبَ الْحَزِينُ،

وَالْقَلْبُ إِلَى مَالُوشِ حَبِيبُ،

وَالْقَلْبُ إِلَى مِنْ عَمَائِلِ النَّاسِ بَقِيَ حَتَّى خَشَبُ،

وَالْقَلْبُ إِلَى اتَّمَهَمَطَتِ دَقَاتِهِ أَصْبَحَ مِثْلَ كُورِهِ مِنْ الشَّرَابِ،

تَضْرِبُهَا رَجْلِينَ الْعِيَالِ طَوَّلَ النَّهَارِ.

وَأَنْ جَتِ عَلَى أَزَازِ أُمِّ هَاشِمٍ يَبْقَى يَوْمَ أَرْزَقُ وَطِينُ،

يَالْكُورِهِ تَتَشْرِمَطُ يَا إِمَامًا أَنْ الْعِيَالِ يَتَفْرَكُشُوا.

حَتَّى إِذَا أَزَازَ " أُمِّ هَاشِمٍ " مَا اتَّكَسَّرِشُ.

مَشَّ صَحْتِ " الْأَسْطَى إِمَامٍ " مِنْ غَفْلَتِهِ.

" وَاللَّى يَصْحَى النَّاسُ يَأْنَسُ أَكْبَرَ غَلَطٍ "!

(3)

وَارْجَعِ أَشُوفَ نَهْرِ الْحَنَانِ

أَلْقَاهُ بِيَطْفِي فِي الشَّرَاقِي بَدُونِ " أُوَانِ "

لَكِنَّ الشَّرَاقِي مَهْمَا شَقَّقَهَا الْجَفَافُ؛

الْمِيَهُ رَاحَ تَرْوِيهَا صُخٌّ،

لَكِنَّ كَمَا

إِنْ سَابَتِ الْمِيَهُ عَلَى الْعَمَائِلِ عَلَى الْبَطَّالِ حَاتَغَرَقَ أَرْضْنَا،

حَتَّى لَوْ الْأَرْضُ شَرَاقِي مُشَقَّقَتَهُ،

وَلَا الزَّرَاعَةَ بَدُونِ أُصُولٍ؟

مَشَّ لَازِمَ الْأَرْضِ تَجْفُ وَتَتَعَزَّقُ؟!

أَوْ ضَرْبَةَ الْحَرَاثِ تَشَقُّ الْأَرْضُ تَقْلِبُ تَبْرِهَا؟!

(4)

وَالنَّظْرَهُ إِلَى بَتُّغْمَرِ الْكُونِ بِالْحَنَانِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ بِتَقُولُ:

